

كتاب اولادي - (تابع ما قبله)

مما يدعو الى التخنت والخور ويلقي في النفس بذور البدوات والرغائب
عوضاً عن الارادة الحققة ويستميلها الى التماس ضالة الخيال بدلا من حقيقة العمل
ومهما يكن فالحياة لديكم ايها الشبان وهي ستكون مثلما تجعلونها وعندني
ان مبداء السير يعتبر قليل الاهمية في حد ذاته بالنسبة الى ما ينتظر اجتيازه
من طويل المسافة وبعيد الشنة فلتكن كيف شئت الظروف التي اوجدكم
بها القدر وسواء ولدتم او نشأتم وانتم صغار او صراهقون في العسر او في
اليسر فانما حظكم في يدكم تجعلونه كما تريدون والوسيلة لبلوغ ذلك واحدة
للجميع وهي العمل ثم العمل باقدام وجد وعزم ولا تحسبوا ان اغناكم مالا
واوفركم ذكاء سيكون ارغدكم عيشاً واهناً لكم بالا وابعدمكم توفيقاً كلا ثم كلا
فانما المقتبط السعيد هو من عرف الجمع بين الامضاء في العزيمة والنشاط
في العمل فدونكم والعمل لانفسكم ولذويكم وللناس كافة فانما مرضاة النفس
في العمل وفيه تحقيق مشتياتها ولذاتها

وهو يلطف من وطأة الحياة ويخفف من وقرها ويسري الهموم
والاشجان ويعين على احتمال المصائب التي لا مهرب منها ولا بد من وقوعها
بل هو شريعة الانسانية المقدسة والشريعة الاجتماعية الحققة
لا جرم ان العمل هو منشأ الفضائل . اما تقول الحكمة ان البطالة
هي ام المعاصي والردائل فلا يعتبر الرجل البطال عديم النفع فقط بل هو
مؤذ للهيئة مؤذ لنفسه اذ ان البطالة التامة ممتنعة فالذي لا يعمل اذن عملاً
نافعاً لا بد ان يعمل الشر

الحياة يحفظها العمل والبطالة تمنى بالشبل ثم الموت وكل جديد لا يستخدم

لغرض من الاغراض يعلوه الصداء وهكذا الدماغ والاعضاء التي لا تقوم بعمل من الاعمال فانها تضعف ويتولاها الانحلال . اما الرجال الذين يتخذون العمل ديدنا ويكون النشاط رائد هم فهؤلاء في امان على قواهم وعلى صحتهم من المؤثرات الخارجية ومن المخاوف والهواجس التي تطيف بالكسالى واهل الخمول ولا يتطلعون مثلهم كل صباح طلع نيران الهواء او الجو حرصاً على ابدانهم الناعمة المسترخية ولا الى المرأة ليروا لون لسانهم . لا بل هم يعيشون عاملين ويستأصلون من الاصل جذور الداء الذي قد تهدد عقولهم واجسامهم فهم اصحاء اذ هم عاملون

ومن فضائل العمل انه يعين على احتمال اعباء الحياة ومتاعبها برضى وطيب خاطر ويبعث في النفس الابتهاج والسرور . اما البطالة فهي تدعو بعكس ذلك الى الاكثار من التأمل واطالة النكر في اتفه الامور واكل الشؤن اهمية فهي تعظم الهموم وتجسم الاشجان وبالتالي تبعت في النفس الكآبة والخلق الرديء ثم ما يتولد عن ذلك من سائر امراض الجسم وهذه النتائج تبدو اشد ظهوراً لمن يقيم خارج اوربا في اي بلد من البلاد الحارة حيث كل شيء يبلغ فيه وحيث الاشياء تظهر في شكل غير الذي نعهده في البلاد المعتدلة وبالْحَقِيقَةُ ان الاوروبيين يعيشون هناك في وسط كل ما فيه عدو لهم من الشمس المحرقة والجو والارض الى الحيوانات والحشرات التي تعج فيها عجيجاً وهم لا يشتغلون كثيراً ولا يعملون من الحركة الا اقل ما يمكنهم وقد استسلموا مستضعفين الى قوى الطبيعة المقوضة الهادمة . ولذا ترى الداء والموت يفتكان في صفوفهم فتكا ذريعاً

اما الذين يتغلبون فهم وهم ويا للأسف النفر القليل على هذه المصاعب

ولا يخونهم نشاطهم العقلي والبدني فانهم يحترعون الاخطار ويمجتازون
 عقباتها ويقومون بواجبهم حافظين الصحة والعافية
 لعمرى ان هذه الحقائق كلها اثبت من ان تحتاج الى برهان وهي
 كلها تشير الى ما في وصية العمل التي انزلتها الحكمة على الانسان من
 السداد والرشاد وهي تدرى فيما تضمنته اقوالى من الالحاح على القراء
 الذين احب ان اراهم كلهم منضمين تحت راية العمل
 وفي الختام اسمحوالى ان ازودكم بكلمة اخيرة وان اقول لكم دونكم
 والعمل دونكم والعمل بلا انقطاع ولا فتور واياكم والبطالة واعلموا ان
 راحة الجسم في شغل الفكر وراحة الفكر في شغل الجسم

الفصل الخامس

التثقيف الادبي

لا يتهيأ التهذيب الادبي عندما يبلغ المراهق من الرجال بل يصبح اذ
 ذلك اشد لزوماً من ذي قبل واوفر عائداً لان المهذب الذي يتولى وحده
 في ذلك الحين تثقيف النفس يكون على الغالب مسموع الكلمة مؤثراً
 نصحه وارشاده وهو الانسان نفسه ثم الحياة التي هي مرشد شديد
 المراس واي مرشد اذا لم تحاذر قوارص تقريعه ولو ادغ تأنيبه وقاسي عقابه
 ولم نسلك طريق الاصلاح وسبيل الكمال

والمرء صغيراً تكون عيوبه صغيرة ولكنها تكبر مع العمر او تصير
سمجة قبيحة عديمة الاحتمال اذا بقيت على حالها فالكذب مثلاً في الطفل
مكروه ولكن اذا ظل ملازماً له حين يصبح رجلاً كان عيباً شائناً مذلاً
وكذا النهم فانه خطيئة عرضية عند الطفل ولكنه في الشباب شهوة حيوانية
مستنكرة

فالحرب التي يشهرها التهذيب على الاحداث لهم على تقويم المعوج
من اخلاقهم لا يصح اذن ان تكف عند بلوغهم سن الرجولية اولا لان
الفوز التام ممتنع ولان الكمال لم تدرك قوته وهي لن تدرك لاستحالة ذلك
ثم لان اطوار الحياة تولد ردائل وعموباً جديدة النوع توجب التوقي منها
او دفعها اذا راودتنا عن انفسنا وانزاعها اذا كانت قد سبقت فعلقت بنا

ولا بد للشباب في حياته من وقت يمر عليه (وبودي ان يتصاقب
ميعاده مع تلاوة هذا الكتاب اذا لم يكن قد سبقه) يستجمع فيه توارد
افكاره ويعمل رويته لفحص طبيعته الادبية فصلاً دقيقاً صادقاً واستبطان
دخائلها وسير اعماقها والتثبت مما فيها من شر يتحتم استئصاله ومن خير
ينبغي الاحتفاظ به او الاستزادة منه

ولقد جرى فرنكايين على هذه الطريقة فانشاء بعد ما اعلم الفكرة
في استطلاع احوال نفسه حساباً قانونياً بما له من فضيلة وحسنة وما عايبه
من عيب او نقیصة وبما كان يتقصه من قيم الخصال المدوحة وما كان يزيد
فيه من الخلال الذميمة ثم استخراج من كل ذلك رصيماً شاملاً للارباح
والخسائر على اتم ما يكون من الدقة والضبط

ولقد يهترض بان كل الناس لا يستطيعون مع الاسف ان يكونوا

فرنكاين وهو قول حق ولكن من الحسابات والموازن ما يتقش على لوح
الدماغ دون ان يكون في حاجة الى تسيطره على القرطاس ومع ذلك فان
لكثير من الشبان ميلا الى ان يدونوا بالكتابة ما تحققوه بانفسهم او صر
بخواطهم وما عقدوا عليه العزم وهو ما فعلته انا بنفسى في نحو الثامنة عشرة
من عمري ولكنى اعترف بان الحال لم تحوجنى قط الى الرجوع لهذا الصك
لاعادة النظر فيه اذ ان الخيلة كفتى مؤونة هذا العناء بما ارتسم عليها من
آثاره ووعته من خلاصته

على ان الذى يهم من هذا الامر انما هو ان يتعرف الانسان العيوب
والرذائل التى يجب استئصالها منه ان كانت موجودة فيه او التى يجب التوقي
منها ان كانت تهدده وكذا الفضائل والمحامد التى ينبغي تقويتها وتمهدها ان
كانت مغروسة فيه او التحلى بها ان كان منها عاطلاً فاذا ما تم ذلك
والادارة والشجاعة معاوتان عليه فلا بد للانسان من بلوغ النتيجة الحسنة
بإذن الله

فما يجب اولاً على الانسان ان يلزم نفسه اياه حتى يصبح عادة انما هي محبته
لكل ما حوى معنى الحقيقة والجمال والخير والعظمة بحيث لا يكون له ميل
او ممالأة لما خلا من هذه العواطف الشريفة والوجدانات السامية وكان
معدوداً من سقط المتاع وان يكون شديد النفرة والكراهة لكل شيء
سافل قبيح ذئب . ولا بد من القضاء بلا رحمة ولا اشفاق على الامور
الشائنة المعيبة . واذا جاز التساهل والصفح في بعض الحالات فليكن هذا
مع الجهلة من الرجال الذين طاشت اخلاقهم وضل رشادهم وراحوا في غيهم
يعمهمون

لا جرم ان الشعائر الكريمة والاميال الشريفة لما يجب ممارسته بلا
انقطاع حتى تنمو وتتأصل فينا كالمسكات ثم تصبح فاذا هي ينابيع لا يغيض
ماؤها من مناهل النشاط التي تبعث مع الحياة من اسباب السعادة والهناء
للنفس والجسم معاً بقدر ما تمنيهما الشهوات الذميمة من البؤس والشقاء .
ولا ينكر ان الشهوات تحارب الفتور والحمول وتدفع عن الانسان ما
يهدده من قلة المبالاة التي قد تفنيه باسرع مما قد تفعله به الرذائل وارتكاب
الموتقات لكنها نافعة على شرط ان لا تكون مطلقة العنان مطلقة السيطرة
على الانسان وان تبقى معتزلة خاضعة لسلطان الارادة والعقل بل هي اعوان
يصح استخدامها لمثل هذه الوظيفة دون غيرها فيما هو قائم في نفس
الانسان من العراك الدائم بين الرذيلة والفضيلة وبين الخير والشر . ولا
غرض من التنقيف الادبي الا ان يهيء للانسان اسباب الفوز على الشر في
هذا المعترك الى ان يتطبع بعبادات ويجري على قواعد تصد عنه هجمات
الشر وتقل منه الفرار

ولمن اراد ان يعيش عيشة راضية وان ينصرف بكليته الى العمل دون
الاخذ والرد على غير طائل وان لا يستغفر تنبه ضميره لرده الى الطريق
السوي ان حاد عنه لا بد له من اركز ممارسة الخير على مبادئ قد اقرها
وحتم على نفسه العمل بها بطريقة مطردة تكون لديه خلقاً ثانياً لا قبل
للتحول عنه

فاذا تسنى للانسان ادراك هذا الشأو فقد بلغ درجة من الكمال
تناسب مع طبيعته البشرية وضمن لنفسه حياة كلها غبطة وهناء
ومما لا ريب فيه ان متابعة الشر وارتكاب المنكر يستلزم ان القصاص

وهو واقع بنا لا محالة بما يقوم في ضمائرنا من الوخز والتبكيت وبما يحل
 بابداننا من الوهن وعذاب الداء والسقام وقلما نرى العدالة الساهرة الا وهي
 اخذة مجراها فاعلة فعلها فهي التي تستولد الآلام والندامة من الشر وتفسد
 علينا الحياة بعكس الخير والصلاح فهما منهلان صافيان للسرور والابتهاج
 وكل من عمل على الاستزادة من الكمال وتهذيب اخلاقه فقد اطاع
 الواجب الاول من واجبات الانسان نحو نفسه . اما التثقيف العقلي فانه
 يجيء ثانياً ولو ان الحاجة اليه ماسة والضرورة ملحة

ومهما اكثرنا من بذل العناية في التهذيب الادبي فلا افراط ولا ملام
 اذ انه اكثر محمود العاقبة غير متصور الفائدة علينا فقط بل يتناول نفعه من
 يطيف بنا ويحتاطنا . وعلى الجملة فان الهيئة الاجتماعية بكليتها تسعد باخلاقنا
 وفضائلنا الحقة وتشقى بعيوبنا وانايتنا الشائنة

وبعد فما هي القاعدة التي يجب على الشاب ان يخطها لنفسه ليصبح
 الرجل الكامل الذي تتمثله اماماً تاماً بمثاله ودليلاً تنسج على منواله
 انه يجب اولاً ان يكون صادقاً بسيطاً بعيداً عن التصنع والتكلف
 اما الصدق فانه يلزمه احترامه في شخصه وفي اقواله وفي فعائه لان
 الكذب والرياء من اشد العيوب كراهة وادعى ما يكون الى الاخلال
 بالواجبات والمرء مدين بالصدق مع غيره على حد ما هو مدين به مع نفسه
 ولا يقتصر فعل الرجل الكذوب على تعريض نفسه للاهانة والاحتقار
 والالتحاف برداء العار بل هو يسلك بحياته في مأزق ضيق حرج كثير
 الصعاب وافر المتاعب فاذا كذب اول مرة اضطر الى ان يعيد الكذب لحو
 ما كان منه اولاً ثم يستأنف الكرة لحو ما كان منه ثانياً وهكذا يستمر متوغل

في الكذب ممعناً في النفاق حتى تصبح الحالة تديمة الاحتمال ويبقى حليف
 القلق والاضطراب الا اذا تمسك باذيال الهوان وخلع عنه رقع الحياء
 وانه ليعتبر صادقاً من كان بسيطاً بعيداً عن التصنع لان من تكلف
 شيئاً في طباعه ضده فقد اخفى نفسه واخفى الحقيقة او ليس حقاً ما قيل
 واسرع مفعول فعلت تغيراً تكلف شيء في طباعك ضده
 ولا مشاحة ان التصنع من العيوب المكروهة من الناس كافة ولا بد
 لمن يشعر بجنوح اليه من العمل على مقاومته الى ان يدفع غائلته وهو ناجح
 لا محالة في النهاية

واذا كان من السهل ان يكون الانسان غير متأنق في حر كانه وسكناته فمن
 الواجب ان يكون قادراً على اقصاء هذا التأنق والتصنع عن نفسه وعن معيشته
 لانه من المستحيل ان يتاح للعقل المتصنع ان يكون تام الجمال كما ان الحياة التي
 يصرف فيها الجهد الى البهرجة وحب الفخفخة والظهور تضطر صاحبها الى اهمال
 الشؤون الجوهرية التي هي غاية الوجود واعتبارها من الامور الثانوية التافهة
 ولقد قال واكثر الكتاب الشهير الذي ابدع في الكلام عن العيشة
 البسيطة ما ملخصه : « تتسلسل موارد السعادة والقوة والجمال على الغالب
 من ينبوع البساطة »

ومتى كان المرء صادقاً بسيطاً بعيداً عن التصنع لزم ان يكون حر
 الضمير مخلصاً شريف النفس مستقيماً وفيماً
 وكون الانسان حر الضمير مخلصاً دلالة كبرى على جهره بالحقيقة
 كاملة على الدوام ولبيان واضح عن هو وعمما يختلج بصدرة ويدور في
 خلد وفكره
 البقية تأتي